ظاهرة الأضرحة الفارغة: حالة ضريح سيدي رضوان الجنوي بقبيلة بني مسارة شمال المغرب

الباحث ابراهيم بل العافية
أستاذ باحث في التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد المالك السعدي، تطوان
المغرب

مقدمة

تزخر قبيلة بني مسارة الواقعة ضمن إقليم وزان شمال المغرب، بعدد كبير من الأضرحة والخلوات التي تعود إلى أولياء منهم من ينتمي للقبيلة، ومنهم من حل بها من مناطق أخرى حيث توجد لهم أضرحة هناك. ومن بين هؤلاء الأولياء الصالحين يأتي سيدي رضوان الجنوي الذي توجد أضرحته في عدة مناطق شمال المغرب؛ في فاس والقصر الكبير وبني مسارة... لكن عند تصفح كتب التراجم التي تطرقت لحياة هذا الولي يتأكد أن قبره يوجد بفاس حيث عاش ومات هناك، لكن حكاية وجود ضريح له ببني مسارة تعتبر مثيرة، حيث تبين أن لهذا الولي فضائل وخوارق من أهمها فضيلة الحضور في عدة أمكنة، وأن قبره الموجود في بني مسارة السفلى أو مناطق أخرى حقيقي، وأن زيارته تحقق العديد من الحاجات؛ كالزواج، جلب الأطفال، إبعاد الحسد، علاج الصرع... نتيجة لذلك، قام خدام الولي ببناء ضريح له وتوقيف الأراضي عليه، وشراء الممتلكات له وإحياء موسمه كل سنة مع ما يترافق ذلك من تقديم للذبائح والزيارات التي تكون عبارة عن أموال توضع في صندوق الضريح يستغلها خدامه عن طريق إشاعة كرامات وسلط مرتبطة به، ليزداد الناس إيمانا ب"بركته"، وأن له القدرة على قضاء مختلف الحاجات والأغراض.

1. قراءة متأنية ومتفحصة في الروايات التي تطرقت للتعريف بالولي الصالح سيدي رضوان الجنوي والكشف عن حقيقة دفنه بقبيلة بني مسارة

اختلفت الروايات وتضاربت الأقوال حول أصل سيدي رضوان الجنوي، وعن حقيقة ضريحه بعد وفاته، هل هو في فاس كما يذكر أصحاب التراجم؟ أم في مناطق أخرى من بينها بني مسارة السفلى كما تدعي بعض الروايات المحلية. وللكشف عن هذا الغموض سنتعرض لهذه الروايات جميعها.

1.1. رواية أصحاب التراجم

حظي سيدي رضوان الجنوي باهتمام كبير من طرف الذين ترجموا له، واعتنوا بتأريخ حياته، والشيوخ الذين تتلمذ على أيديهم، وعلى ما خلفه من آثار في محاولة لرصد جزء من سيرته وثقافته وشخصيته... ومن أهم المصادر التي ترجمت له: "درة الحجال في أسماء الرجال"، تأليف أبي العباس أحمد بن محمد المكناسي الشهير بابن القاضي[1]، و"صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر"، تأليف محمد بن الحاج بن محمد بن عبد الله الصغير الإفراني[2]، و"نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني" تأليف محمد بن الطيب القادري[3]، و" فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات"، تأليف عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني[4]. و"سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس ممن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، للشريف أبي عبد الله محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني[5]. و" شجرة النور الزكية في طبقات المالكية"، تأليف العلامة الجليل الأستاذ الشيخ محمد بن محمد بن عمر بن قاسم مخلوف المتوفي 1360هـ[6]، و" المطرب في مشاهير أولياء المغرب"، تأليف الشيخ أبي عبد الله بن عبد القادر التليدي[7]. كما توجد ترجمته أيضا في:" تحفة الإخوان ومواهب الامتنان في مناقب سيدي رضوان"، لأبي العباس أحمد بن موسى المرابي الأندلسي المتوفي عام

(1034هـ)، و"جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس"، تأليف أحمد ابن القاضي المكناسي، الجزء الأول (ص197). و"الفكر السامي في الفقه الإسلامي"، لمحمد بن الحسن الحجوي الثعالبي (ص601). و"فهارس علماء المغرب منذ النشأة إلى نهاية القرن الثاني عشر للهجرة منهجيتها ـ تطورها ـ قيمتها العلمية"، للدكتور عبد الله المرابط الترغي[8].

أ. نشأة سيدي رضوان وحياته

هو أبو النعيم سيدي رضوان بن عبد الله الجنوي نسبة إلى مدينة جنوا الإيطالية[9]، أسلم أبوه وقدم إلى المغرب في حدود التسعين وثمانمائة أو ما يقرب منها[10]، وسبب إسلامه أنه كان له فرس، فانطلق من مربطه ليلا وخرج يدور في أزقة جنوا، وهو يعدو خلفه إلى أن دخل الفرس الكنيسة العظمى، وجدها مفتوحة فدخل بأثره متخوفا أن يشعر به سدنة الكنيسة، فأخرجه ورده إلى مربطه كما كان، وهو في ذلك لم يتلاق بأحد ولا أبصره أحد، فلما أصبح النهار خرج من منزله، فوجد المدينة تقوم وتقعد بأهلها، والناس في فرح عظيم، فسأل عن ذلك فقيل له: إن المسيح جاء البارحة على فرسه إلى الكنيسة العظمى، فراث فرسه فيها، وإن الناس يزدحمون على ذلك الروث حتى بيع قدر الذرة به بمال جزيل، فعلم أن النصارى على ضلال، وهناك قذف الله الإسلام في قلبه، فقدم مسرعا إلى بلاد الإسلام، فخرج برباط الفتح، ووجد هنالك امرأة يهودية وقع لها مثل ما وقع له، فأسلمت فتزوجها فولدت له صاحب الترجمة، ولذلك كان صاحب الترجمة يقول عن نفسه:" خرجت من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين"، ويقال أن أباه رأى في نومه أنه بال ياقوتة، فعبرت رؤياه بأنه يلد ولدا صالحا فكان كذلك، ولد سيدي رضوان بمدينة فاس سنة اثنتي عشرة وتسعمائة (912 هـ) وبها نشأ[11].

ب . شيوخه

أخذ عن الشيخ أبا محمد عبد الله الغزواني، حيث وفد عليه وهو صغير السن فوجده يتوضأ، فرشه بغرفة ماء فزرعت فيه الخير وأنبتت فيه خصال البر وله أمداح في هذه الرشيشة[12]. ولما رحل الشيخ الغزواني لمراكش انتقل سيدي رضوان إليها بعدما كبر وتهيأ لذلك، بقصد الانتفاع به والتتلمذ على يديه[13]، فبقي في صحبته نحو أربعة أشهر، ثم توفي الشيخ، فبقي بعده بمراكش نحو السنة[14]. ثم التقى الشيخ أبي محمد بن عبد الرحمان سقين(ت956هـ) بفاس، وتعلم على يده، ثم زار وأخذ عن الشيخ أبا عبد الله محمد بن علي الأندلسي البرجي الشهير بالشطيبي بموضعه بتازغدرة من بلاد بني زروال وأخذ عنه[15]، وأخذ أيضا عن الشيخ أبا عبد الله المعروف بالكبير بن الشيخ أبي زكرياء يحي بن عبد الله بن محمد ابن بكار بموقعه بالجبل المسمى بجبل ويلان[16]. والشيخ أبي عبد الله الخروبي الطرابلسي[17] نزيل الجزائر ودفينها المتوفي سنة ثلاث وستين وتسعمائة[18]...

ج . رئاسته

انتهت إليه الرئاسة بعد ذلك في تربية السالكين وتهذيب المريدين وكشف مشكلاتهم وتفصيل أحوالهم... محيي رسوم الطريقة الشاذلية بعد اندراس آثارها[19]، وأجمع العلماء والصلحاء على تعظيمه وتوقيره وحسن الثناء عليه... "وبالجملة فمناقبه جمة لا تحصى، وأوصافه كثيرة لا تستقصي وشهرته في العلم والصلاح تغني عن التعريف". كان شديد الخوف من الله قريب الدمعة كثير البكاء، حتى كان شيخه الإمام سقين يسميه رضوان البكاي. ومن ورعه أن السلطان المنصور بعث له يوما زرعا لداره، فأفرغه حملته بها، ولم يجدوا الشيخ في الدار، فلما جاء أمرهم بنقله، وقال: لا حاجة لي به، فرفعوه ونكس موضعه، حتى كان يتتبع النقب في الحائط بعود في يده يخرج ما فيها من الحبوب"[20]. اشتهر أبو النعيم سيدي رضوان برواية الحديث وإسناده فأخذ عنه أهل عصره وأسندوه إليه، منهم أبو عبد الله القصار وعبد الواحد الحسني السجلماسي وغيرهما[21]، وكان من آخر المحدثين الصالحين بفاس[22].

تبوأ قيمة علمية واسعة وأثنى عليه الكثير من العلماء. من ذلك قول ابن القاضي في كتابه درة الحجال:" الولي الصالح المحدث المكثر الرواية، رحالة أهل زمانه، وواحد وقته وأوانه، آخر المحدثين بفاس" [23]. وقال فيه الإفراني في صفوته:" وكان شديد الاتباع للسنة، معمور الأوقات بالعبادة وكان يقول ـ أوقاتنا والحمد لله كلها معمورة ولو قيل لي غدا تموت، لم أزد مستزادا ـ وكان حافظا للسانه ساقط الدمعة يقول لأصحابه ـ إنما نتعاون على الدين ولست لكم بشيخ". وقيل فيه أيضا: "كان رحمه الله إماما خاشعا قانتا زاهدا ورعا لم يكن مثله في زمنه، ولذلك قال الشيخ القصار: سيدي رضوان الرجل الصالح لو أدركه أبو نُعيم لجعله صدر حليته. أو قال: مع أويس القرني، وكان شديد الخوف من الله قريب الدمعة كثير البكاء... وله رحمه الله كرامات يطول تتبعها، وله شعر حسن جدا، وقد أفرد أخباره بالتأليف تلميذه الشيخ الفقيه أبو العباس أحمد بن موسى المرابي الأندلسي المتوفي عام أربعة وثلاثين وألف، سماه " تحفة الإخوان ومواهب الامتنان في مناقب سيدي رضوان"[24].

كان صارما لا يخاف في الحق لومة لائم، شديد الشكيمة على الظلمة غير مكترث بهم، وحكي عنه أنه مر يوما بحاكم فاس، وهو يفصل بين الناس، فتقدم إليه الشيخ فقال له: أيها الحاكم أتعرف ابن الحاجب؟ فقال له لا إنما أنا حاكم فقال له: أتعرف خليل؟ فقال: لا، فقال له: أتعرف الرسالة؟ فقال له: لا إنما أنا حاكم، فقال له: وبأي شيء تحكم بين الناس؟ لا والله لا يحل السكوت على هذا. فطلع للسلطان وأخبره بما رأى فعزل الحاكم[25].

كما يحسب لسيدي رضوان الجنوي مخاطبته للسلطان السعدي أحمد المنصور الذهبي عبر رسالتين تبين صرامته في تقويم الانحرافات والسياسات غير القويمة للدولة. يثير في الرسالة الأولى انتباه المنصور الذهبي إلى بلبلة البرتغاليين بعد انهزامهم في معركة القصر الكبير، ويلح على انتهاز هذه الفرصة لاسترداد المدائن التي يستولي عليها المنهزمون: طنجة وأصيلا وسبتة، حتى يتجاوب الحكم مع تطلعات الرعية: " إلى هذا، فالله الله في الحزم وإمضاء العزم، وهو ما ظهر لرعيتكم من انتهاز هذه الفرصة الممكنة في هذا الوقت، من الحركة لمدائن الكفار التي هي طنجة وأصيلا وسبتة، فأنهم في هذه الساعة في دهش وخزي وخذلان بما أمكن الله منهم، ولا أظن – نصركم الله – مثل هذا يخفى عليكم حتى نحتاج أن نذكركم به"[26].

أما الرسالة الثانية فينقد فيها على العاهل ذاته سياسته في قبول الغذاء– بالمال– للأسرى البرتغاليين، على حين أن المسلمين والمسلمات بأيدي الكفار في غاية العذاب والإهانة، والفرصة مواتية أن لا يبقى في أيدي الأعداء واحد من هؤلاء المؤمنين الذين فداؤهم على المسلمين: "وهي كيف يمشي هؤلاء الكفار كلهم إلى بلادهم، وإخواننا– المسلمون– بأيديهم في غاية العذاب والإهانة؟ نحن قادرون على أن يبقى واحد منهم في أيديهم، وفداؤهم فرض علينا من بيت المال وأموال الناس كلهم حتى لا يبقى واحد، ففتح الله في هذا الفتح العظيم، ومن الله — تعالى– علينا به، وحصل في أيدي المسلمين رؤوس الكفر، ألا وهم يمشون لبلادهم بالشيء التافه الذي لا حاجة للإسلام به، ويبقى إخواننا بأيديهم، كأن هذا الأمر سهل، فلا– والله– ليس الأمر بسهل، وإنما يحاسب على ذلك من قدر عليه ولم يفعله، كالراعي والرعية، فإن كان هذا حرصا على المال فإن المال بالغرب كثير، وقبل أن كانت هذه الغنيمة أكنتم محتاجين(3) إليه؟ بل كنتم ـ والحمد لله– أغنياء عنه"[27].

د . وفاته

كانت وفاته رحمه الله بمنزله من زنقة العنوز من عدوة الأندلس من فاس، عند العشاء ـ أو قربها ـ من ليلة الخميس الثالث عشر أو الرابع عشر ـ من ربيع الأول، سنة إحدى وتسعين وتسعمائة،(1583م)[28] وصلي عليه من الغد بعد صلاة الظهر بجامع الأندلس، صلى عليه الفقيه سيدي محمد المرابط بن الشيخ سيدي محمد بن جلال التلمساني، ودفن بجنان بهذا الخارج بأعلى مطرح الجنة،[29] عن يسار مصلى العيد، أسفل منها، وحضر جنازته أهل فاس البالي والجديد، رجالا ونساء وأمير الوقت،[30] ولم يدفن إلا

بعد صلاة العصر بعد مشقة عظيمة من الازدحام، ولم يرجع جل الناس من جنازته إلى أن غاب القرص وبني عليه بيت وجعل على قبره به مقبرية من حجر منقوش بجانبها اسمه، وهو رضوان، وعلى قبره هيبة والدعاء عنده مستجاب. وقد جدد بناءه بعد خرابه السلطان الحسن الأول وعند تجديده له أزيلت المقبرية المذكورة من قبره.[31] ولم يخلف سيدي رضوان ولدا ذكرا، إلا ابنة لها عقب بفاس يعرفون بأولاد ابن مبارك، وكان له في حياته وبعد وفاته أتباع، ولم يتخذ زاوية...[32]

2.1. رواية السيد عبد السلام اسريفي[33]

الرواية التي كتب حولها السيد عبد السلام اسريفي[34] نقيب الشرفاء السريفيين الشليين في سيدي رضوان ترجمة في كناشته، ومفادها "أن أصل سيدي رضوان من مدينة جنوا الإيطالية، وكان أبوه راهبا، فوقع بينه وبين رئيس الكنيسة خلاف كبير ومناقشة حادة، فاضطر لمغادرة جنوا، فركب فرسه ودخل الكنيسة (الدير) ليودعها، فتروث فرسه، وفي الصباح الباكر جاء رئيس الكنيسة وجمع الرهبان وحكى لهم بأن الله قد نزل في الليل وترك أثره هنا، فتسابقوا على الأخذ من ذلك الروث، فزاد تيقنه بأن ما يعبده دين خرافة، وأن عليه مغادرة المنطقة باحثا عن الحقيقة. فانتقل إلى الأندلس ومنها إلى المغرب واستقر بسلا وتزوج بها من امرأة يهودية، فأسلم هو وزوجته، وأنجبا طفلا سموه رضوان ورباه تربية دينية صالحة، فحفظ القرآن والمتون على يد شيوخ مغاربة أجلاء مما جعله أهلا للعلم والمعرفة حتى أصبح رئيسا للزاوية الشاذلية بفاس". وحسب كلام اسريفي أن " الولي سيدي رضوان "كان يتنقل من فاس إلى الشمال ليجتمع باعتباره شيخ الطريقة الجزولية الشاذلية بجميع المريدين بها كالشيخ سيدي علي الشلي والشيخ محمد القصار وسيدي فضول المساري دفين القصر الكبير... وكان يختلي في مكان بعيد عن الناس، ويقال أن هذا المكان هو الموضع الذي يوجد فيه ضريحه الحالي، وكان يعاشر أبناء الشيخ سيدي علي الشلي الوافدين من أهل اسريف. وأمر موته وقبره فمبهم، فمنهم من يقول أنه بقي في فاس، والراجح أنه مدفون ببني مسارة. وكان ضريح سيدي رضوان مبني بالتراب وجعلوا موسمه يوم التاسع عشر من عيد المولد النبوي.

وأضاف اسريفي بقوله أن "ضريح سيدي رضوان كان موقرا، فكانت أموال القبيلة من الذهب والفضة تودع فيه من قبل السكان، وكل من احتاج شيئا اتصل بالمقدم، وأخذ ما يحتاجه من ماله، ولا أحد من الثوار أو قطاع الطرق أو اللصوص يتجرأ على أخذ أي شيء منه. ويحكى واقعيا أن من سرق شيئا ومر أمامه فيصبح أمامه، ولما كثرت الزيارات به فكر المقدم محمد بن لحسن الشلي السريفي مع كبار القبيلة والشرفاء في بناء ضريحه، ونهضوا بيد واحدة في جمع الحجر وطهيه بالنار والحصول على مادة الجير، وبني تحت إشراف المقدم محمد بن لحسن. وعندما تم بناؤه قرر المقدم والشرفاء تحويل جثته من مكانها القديم إلى المكان الجديد. فاختص لهذا الغرض المقدم ومعلم البناء فحملوها من مكانها القديم، ويحكي والدي الحاج استيتوا المقدم بن لحسن أن والده المقدم، حكى لهم بأنهما وجدا جثته مازالت على حقيقتها كما دفنت في حينه، وهي رواية مروية عن أشخاص ثقات لهم مكانتهم في المنطقة".

تتفق هذه الرواية جزئيا مع رواية أصحاب التراجم، خاصة مع رواية الإفراني (صفوة من انتشر)، وربما أخذ عنه في التأكيد على الأصل الإيطالي لسيدي رضوان وعلى سبب إسلام أبيه وانتقاله إلى المغرب[35]. وعلى أنه كان عالما كبيرا، ساهمت جهوده في تجديد وإحياء الزاوية الشاذلية. لكن السيد عبد السلام اسريفي يضيف رحلات أخرى لسيدي رضوان في الشمال وأضاف إلى مريديه عددا من شيوخ الصوفية الكبار لم ترد في مصنفات أصحاب التراجم والمناقب كالشيخ سيدي علي الشلي وسيدي فضول المساري دفين القصر الكبير، كما أضاف أيضا مكان اختلائه للعبادة والناس الذين كان يعاشرهم "وكان يختلي في مكان بعيد عن الناس، ويقال أن هذا المكان هو الموضع الذي يوجد فيه ضريحه الحالي، وكان يعاشر أبناء الشيخ سيدي علي الشلي الوافدين من أهل اسريف". وهذا أمر لم يرد أبدا في ترجمة أصحاب التراجم، فمن أين يا ترى استقى السيد عبد السلام السريفي روايته؟

أما فيما يخص إقراره بأن أبناء سيدي علي الشلي عايشوا صاحب الضريح وعاشروه في حياته، فهذا خطأ تاريخي، فسيدي رضوان عاش خلال القرن السادس عشر الميلادي/ العاشر الهجري، أما أبناء سيدي علي الشلي (السريفيين) فجاء جدهم الأول إلى بني مسارة في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي / الثاني عشر الهجري. ولم يكونوا في بني مسارة أيام مجيء الشيخ إلى المنطقة، فالفارق الزمني كبير إذا.

كما أن موقف صاحب هذه الرواية يضطرب في مسألة مكان موته، وأين يوجد قبره هل بفاس أم في سيدي رضوان الحالي؟ حيث يعتري كلامه بعض الشك وعدم اليقين: "وأمر موته وقبره مبهما، وغير محقق فمنهم من يقول أنه بقي بفاس، والراجح أنه مدفون ببني مسارة ".

3.1. رواية السيد هاشمي التهامي[36]

هي الرواية التي أوردها السيد التهامي هاشمي[37] في مخطوطه، حيث قال: " هو أبو النعيم

وأبو الرضى ابن عبد الله الجنوي المتوفى ليلة الخميس 13 أو 14 ربيع الأول سنة 991 هـ بفاس، التقى به (سيدي علي الشلي بالقصر الكبير وأخذ عنه بمدينة فاس أنواع العلوم التي كان يدرسها هناك من فقه وحديث وتفسير وغير ذلك"[38]. ثم أضاف هاشمي في فقرة أخرى: "تذكير بالولي الصالح البار سيدي رضوان [...] إلى بلدة حجر بني عِيش وسكن بها وعبد الله بها زمنا، حتى وافاه الأجل بها 991هـ، حيث شاع ذكره وصيته من أبناء هذه البلدة، كأمثال أولاد السريفي وأولاد البراضي وأولاد السنيدي وأولاد بن هنو. وبدأوا يفكرون بالحفاظ على قبره الطاهر وفعلا حصل الاتفاق على بنائه بالحجر والصلب والجير بدلا من التراب الذي كان مبنيا به وشرعوا بالبناء بواسطة المعلم محمد بن البشير من مدينة وزان بمال التبرعات من أهل البلدة المذكورين أعلاه، ثم بنوه كما هو الآن. أما السور الذي هو محاط بالبناء، فقد بناه الحاكم الفرنسي اسمه القبطان سفرى، الذي كان حاكما بمركز زومي إبان الاستعمار الفرنسي بالمغرب. ويحكى عن ثقة (ثقات) المقدم محمد بن لحسن السريفي والمعلم محمد بن البشير اللذان تفردا بنقل جثة الولي الصالح ليلا من قبرها القديم إلى قبرها الجديد، أن هذه الجثة بقيت على حالها ولم تتغير، هذا ذكره لي أمي وأبي رحمهما الله. يقولون بني الضريح عام 1282هـ / 1866م. ومع مرور الزمن توفر في صندوق هذا الولي دراهم، حيث فكر المقدم بشراء عقار بالشاوية من الشريف الوزاني مع أهل البلدة، هو الآن تحت تصرف وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية"[39].

تكمن أهمية هذه الرواية في تأكيدها على صحة نسب الولي الصالح سيدي رضوان الجنوي وعلى أدواره العلمية والصوفية التي عرف بها، والذي توفي بفاس سنة 991 هـ . إذا فصاحب الرواية يعترف صراحة أن سيدي رضوان مات بفاس، وهو يتفق في ذلك مع ما هو مدون في كتب التراجم التي تحدثت عن الشيخ أبو النعيم سيدي رضوان الجنوي كما بيناه سابقا. كما أن صاحب الرواية يناقض نفسه في فقرة أخرى، ويؤكد قطعيا أن الولي سكن منطقة سيدي رضوان الحالية وعبد الله بها حتى وافاه الأجل بها سنة 991هـ. وهو في ذلك يتفق مع رواية السيد عبد السلام اسريفي، في كون أن الولي الصالح سيدي رضوان الجنوي كان ينتقل إلى بلدة سيدي رضوان، وتوفي بها ودفن تحت ترابها. وهي رواية تناقض تماما رواية أصحاب التراجم الذين يؤكدون أنه عاش ومات بفاس ودفن بها.

كما يكرر السيد هاشمي قصة بناء الضريح الجديد ومسألة نقل الجثمان إليه وهو سالم لم يتحلل، وهي قصة متداولة بشكل واسع في المنطقة وتتفق مع ما أورده السيد عبد السلام اسريفي في روايته السابقة. وهي رواية تعكس وتناقض ما ذهبت إليه الروايات التي تتحدث أن ما هو موجود في سيدي رضوان إلا خلوة للولي وليس قبره. وهذا يبين أن السيد عبد السلام اسريفي والتهامي هاشمي

استقيا روايتهما من نفس المصدر، فهما أبناء عم وآباؤهما وأجدادهما من خدام الضريح وأتباعه، واستقيا معلوماتهما من نفس المصدر وهو مقدم الضريح السيد محمد بن لحسن السريفي خاصة في مسألة إخراج الجثمان الكامل وقبض السراق واللصوص، إضافة إلى بعض الخرافات التي ربما استنكفا عن ذكرها، رغم أنها متداولة بشكل كبير بالمنطقة كموت العروسة التي تمر أمامه في طريقها إلى بيت زوجها، وضياع السارق الذي يسرق بجوار الضريح[40].

تبين بوضوح الأدوار التي لعبها الولي في حياته، وبقي يمارسها بعد مماته، وهذا في اعتقادنا مجرد احتمال يكمن في كون خدام الضريح وأتباعه أطلقوا هذه الروايات بهدف نشر الخرافة وسط العامة مادام هؤلاء الناس مستعدين لتصديقها حتى يزدادوا حبا وتشبثا بالضريح، ومن ثم زيادة الأعطيات والهبات التي جعلت صندوق ضريح سيدي رضوان مملوء بالأموال، ومن أكثر الأضرحة مداخيل وثراء وغنى بالمنطقة، مكنت من بناء بناية ضريح جديدة جميلة بمواد غير تقليدية تليق بمقام سيدي رضوان. بينما أضرحة باقي الأولياء بالمنطقة كانت مداخيلهم ضعيفة، فبقيت بناءاتها تقليدية بالمواد التقليدية؛ كضريح مولاي عبد الكريم وضريح سيدي علال الغماري وضريح سيدي محمد بالزباطيين... بل إن ثراء سيدي رضوان تعدى بناية الضريح إلى شراء الأراضي والعقارات له.

4.1. رواية الدكتور عبد السلام البكاري

هي الرواية التي ذكرها الدكتور عبد السلام البكاري في كتابه القيم " الوجيز في تاريخ وأعلام مسارة وعلاقة وزان وما والاها من قبائل جبالة " حيث قال :" هو الشيخ أبو النعيم سيدي رضوان الجنوي، كان نصرانيا قدم من جزيرة جنوى خليج إيطالي، وكانت أمه يهودية رباطية أسلمت مع أبيه وحسن إسلامهما، سكن أبوه أول الأمر مدينة تطوان ثم ارتحل إلى فاس حيث استقر بها، وفي هذه المدينة ولد أبو النعيم رضوان بن عبد الله وبها نشأ نشأة دينية، تعلم على شيوخها الأفذاذ ومنهم الشيخ عبد الله الغزواني (توفي 935هـ)، وأبو العباس أحمد المرابي والسيد محمد الطالب والشيخ أبو عبد الله بن علي الشطيبي الزروالي والإمام زروق (توفي سنة 963هـ).

وغير هؤلاء كثير من شيوخ القرويين في عهد الدولة السعدية، وبعد الرحلة العلمية استقل الولي الصالح رضوان بن عبد الله الجنوي بنفسه وانتهت إليه الرئاسة في تربية المريدين والسالكين على الطريقة الشاذلية. وبعد تألق نجمه في العلوم الدينية وقصده المريدون ولا سيما أصحاب الطريقة الشاذلية التي كان سيدي رضوان سببا في إحيائها بعد اندثارها بالمغرب الأقصى. وقد تخرج على يده جماعة من التلاميذ المريدين في الطريقة السابقة الذكر والعلوم الشرعية والتصوف. ولسيدي رضوان بن عبد الله مناقب وكرامات أفردها تلاميذه بالتأليف، ونظرا لكبر الكتاب اختصر، واسم هذا الكتاب هو" تحفة الإخوان ومذاهب الامتنان في مناقب سيدي رضوان". ولهذا الولي الصالح أضرحة في جل أرجاء المغرب منها:

. ضريح بالقصر الكبير يزار ويتبرك به العامة.

. ضريح ببني مسارة السفلى بفرقة حجر بني يعيش ...[41]

يتفق البكاري مع الروايات السابقة في أن أصل سيدي رضوان أجنبي، كان نصرانيا قدم من جزيرة جنوا الإيطالية من أب نصراني وأم يهودية أسلما وحسن إسلامهما، ارتحلا إلى فاس وفي هذه المدينة ولد أبو النعيم سيدي رضوان وبها نشأ. وإذا كان البكاري قد أرجع نسب سيدي رضوان إلى إيطاليا إلا أنه وقع في خطأ يتجلى في ذكره أن سيدي رضوان هو من جاء إلى المغرب من إيطاليا، والحقيقة انطلاقا من كلامه اللاحق، تبين أن الذي جاء هو أبوه النصراني الذي أسلم في المغرب وتزوج أمه اليهودية التي أسلمت بدورها، وبعد زواجهما انتقلا إلى فاس وهناك ولد ابنهما سيدي رضوان.

كما أشار البكاري إلى أمر هام قد يميط اللثام على حقيقة ضريح سيدي رضوان بالمنطقة، وهو أن الضريح الموجود بالبلدة هو في الواقع خلوته حولها الناس إلى ضريح، وهي خلوة لها نظائر أخرى منتشرة في كل بلاد المغرب، من أهمها بني مسارة السفلى، القصر الكبير، دون أن يشير إلى ما إذا كان سيدي رضوان قد زار هذه البلدة في حياته أم لا؟ كما أن هذا المكان لم يذكره أصحاب التراجم من بين الأمكنة التي زارها أو استقر بها الولي قيد حياته.

5.1. رواية السيد محمد الخليطي مدير مدرسة سيدي رضوان بالجماعة الترابية سيدي رضوان.

من الروايات التي حامت حول شخصية سيدي رضوان، وتدعي أنه ولي صالح أصله مغربي، وهي رواية حصلت عليها من رسالة تحمل طلبا من مدير مدرسة سيدي رضوان الابتدائية وجمعية آباء وأولياء تلاميذ المدرسة[42]، تحث نيابة وزارة التربية الوطنية بنيابة سيدي قاسم على الاحتفاظ باسم "سيدي رضوان" كاسم للمدرسة، بعدما عزمت على تغيير اسم المؤسسة. وقد أرفق أصحاب الطلب مع طلبهم تعريفا بشخصية سيدي رضوان، زعموا أن هذا الولي جاء من مدينة العرائش فارا من الامتحان والمتابعة التي كان يقوم بها السعديون للأولياء المناوئين لهم، خاصة في عهد السلطان محمد الشيخ السعدي، فجاء هذا الولي فارا إلى موضع سيدي رضوان الحالي ولبث مختبئا به إلى أن وافاه الأجل المحتوم فدفن هناك.

إن الجديد في هذه الرواية هو أن سيدي رضوان الجنوي من الأولياء المغاربة الصالحين، ولي صالح أصله مغربي وليس كما تؤكد الروايات السابقة أجنبيا، وقد أقام مدة زمنية مهمة من حياته بهذا المكان الحالي لجماعة سيدي رضوان، حتى توفي ودفن جثمانه بها. تتجلى أهمية هذه الرواية في كون ضريح سيدي رضوان الحالي حقيقي، وليس كما يدعي البكاري في كونه فقط خلوته، كما تؤكد صدقية رواية مقدم الضريح السابق ومعلم البناء لما نبشا القبر ونقلا نعشه الذي لم يتغير إلى مكانه الحالي، وهي الرواية التي أوردها اسريفي وهاشمي كما بيناه سابقا.

إلا أن أمر الشك في هذه الرواية يبقى حاضرا، خاصة أن هدف الذين كتبوها كان هو إقناع مسؤولي نيابة وزارة التربية الوطنية (الإدارة) بالاحتفاظ باسم الولي اسما للمدرسة، باعتباره شخصية دينية صوفية عريقة كان لها وزنها في مجتمعها المحلي. كما أنها حيكت من قبل كاتبيها ربما أنهم لم يصدقوا ولم يؤمنوا بالرواية المحلية التي بلا شك يعلمونها باعتبارهم أبناء المنطقة وأهاليهم من خدام الضريح... وقد استفسرت شخصيا من مدير المدرسة آنذاك السيد محمد الخليطي الذي كان مشاركا في صياغة الطلب عن المصادر التي استقوا منها روايتهم، فأكد لي علمه بالرواية المحلية، بل عبر صراحة عن عدم قبوله وتصديقه لها، إلا أنه عجز عن مدنا بأي مصدر أو مرجع يؤكد صدقية روايتهم التي قدموها للمسؤولين.

مهما يكن من أمر، فقد أشارت الرواية إلى أمر هام جدا حول شخصية هذا الولي، وهو أنه جاء من العرائش وليس من فاس، جاء هاربا من البطش وليس للخلوة والعبادة. الرواية تؤكد صراحة أن الولي مدفون بالمكان، وليس كما تدعي رواية البكاري وغيره من أن الموجود هنا هو فقط خلوته. كما أن هذه الرواية تتفق مع ما جاء به هاشمي واسريفي، والتي تؤكد حقيقة دفن جثمان الولي في قبره بالمكان الحالي ببني مسارة، وتؤكدها شهادة الذين نبشوا وغيروا قبره. كما أنها تتفق جزئيا مع الحقيقة التاريخية حول الصراع والقمع الذي مارسه السعديون في حق علماء وصلحاء الشمال الذين رفضوا هذه الدولة بقوة والتي نهجت بالمقابل سياسة التضييق على الصلحاء لكسر شوكتهم[43]. وعليه فضريح سيدي رضوان لا يعود للولي سيدي رضوان الجنوي المقبور بفاس، بل هو لولي آخر يحمل نفس الاسم "سيدي رضوان"، جاء هاربا إلى بني مسارة من منطقة الشمال التي عرفت اضطهادا كبيرا لأوليائها وصلحائها على يد الدولة السعدية بسبب إحساس" صلحاء الشمال بالخيبة لعدم استفادتهم من تأييدهم للسلطة الجديدة... بإظهار عدم اكتراثهم بالحكم وزهدهم فيه وحاجته هو إليهم، وقدرتهم على مواجهته دون خوف"[44]. كما أن مسألة خدمة الضريح التي يمارسها

السريفيون أبناء سيدي علي الشلي المقبور بقبيلة أهل اسريف ضواحي العرائش تؤكد أنه عاش في الشمال، وخدمتهم للضريح جاءت من تتلمذ جدهم عليه واتباعه لطريقته[45].

استنادا إلى هذا، يظهر أن الولي حقيقي، عاش جزءا من حياته بالمنطقة ومات بها، وهو لا يزال شابا لم يتزوج، ودفن تحت ثراها، مسألة نقل جثمانه وهو سالم بعد تجديد الضريح تؤكد حقيقته، وتتنافى تماما مع رواية أصحاب التراجم[46] التي تزعم أن الولي سيدي رضوان الجنوي مات ودفن بفاس. كما أن الخوف من موت العروس ليلة دخلتها إن مرت من أمام ضريحه، جاءت في الواقع من خشية الناس من سلطة ولي مات شابا أعزبا، زادتها قوة حقيقة جثمانه الذي لم يتغير، والمؤكدة لحقيقة أنه ولي عظيم، ترسخت هذه القصص مع الزمن في أذهان الناس فصدقوها. أما سلطة حماية الأموال من اللصوص عندما توضع في الضريح، فهي مستمدة في الواقع من سلطة الذين كانوا يشرفون على إدارته وحزمهم في ذلك، بالإضافة إلى سلطة وهيبة الدولة.

2. سيدي رضوان الجنوي بين رمزية المكان وسلطة الضريح

1.2. سيدي رضوان الجنوي ورمزية المكان الذي دفن فيه.

من الروايات السالفة الذكر، يمكن استنتاج أن سيدي رضوان الجنوي كان من أولياء الله الصالحين، جاء والده من إيطاليا إلى المغرب، حيث أسلم وتزوج امرأة يهودية أسلمت أيضا، وأنجبا ولدا سمي سيدي رضوان. وبعد نموه تعلم على أيدي شيوخ وعلماء كبار، حتى أصبح من كبار المحدثين والصلحاء في المغرب، حيث انتشرت شهرته على نطاق واسع واسعة[47]. لا شك أن الأولياء والصلحاء كانت لهم حظوة ومكانة خاصة لدى المغاربة، مما جعلهم يتعلقون بهم ويطلبون بركتهم لما لها من منافع، بما في ذلك استجابة الدعوة عند قبورهم وخلواتهم. من خلال كتابات أصحاب التراجم، يتضح أن سيدي رضوان الجنوي من الأولياء الذين كانوا يشتهرون بأن الدعاء عند قبرهم مستجاب، كما يقول الشريف محمد بن جعفر الكتاني في سلوته: " وعلى قبره هيبة والدعاء عنده مستجاب"[48].

طبيعي بعد هذا، أن يعتقد الناس خاصة العامة والبسطاء وأمام هول الأمراض والفاقة وانتشار الأمية، أن للأولياء بركة لا تخطئها العين، وأن هذه البركة تتجسد في أضرحتهم وقبورهم، ويعتقد الناس أن التربة أو المكان الذي كان يختلي به أو مر منه الولي يحمل جزءا من بركته. وبناء على هذا، تعتبر الرواية التي أوردها البكاري في كتابه "الوجيز" صحيحة، وأن ما هو موجود في منطقة بني مسارة السفلى هو خلوة للعبادة والتأمل، على غرار ما يفعله باقي الأولياء الصالحين الذين يفضلون اتخاذ الأماكن النائية البعيدة في قلب الجبال والشعاب، ليختلوا ويعتزلوا فيها بعيدا عن مفاتن الدنيا وضجيج الناس.

عندما توفي الولي سيدي رضوان في مدينة فاس ودفن بها، افتقده السكان المحليون الذين انقطعت أخباره عنهم، ولذلك اتخذوا المكان الذي كان يختلي به للتبرك والتزود، مزارا يزورونه ويتبركون به ووصلت المحبة إلى درجة بناء ضريح لتخليد ذكراه. وبناء على هذا، فجثمان سيدي رضوان غير موجود ببني مسارة، ولكن بركته موجودة يلتمسها الناس، وقد جسدوا هذه البركة في بناء ضريح، وهم على يقين أن جثمانه مدفون هناك، فجثة الأولياء في مخيال هؤلاء الناس ترقد في المكان الذي عاشت فيه حياتها[49].

هذه الكرامات ليست محصورة على سيدي رضوان وحده، بل هناك أولياء آخرون يشاركونه في هذه الخصائص. في المغرب، هناك عدة قصص مشابهة لأولياء يتمتعون بموهبة الحضور في أماكن متعددة في نفس الوقت، مثل الولي الصالح بوجداين بالريف[50]. وفي قبيلة بني مسارة أيضا، هناك قصص مشابهة لبوجداين، حيث يحضر رفاقهم في كل ضريح لهم، مثل ضريح مولاي عبد الكريم بن عيسى الذي يقع قريبا جدا من ضريح سيدي رضوان، وضريح آخر بقبيلة بني مزجلدة المجاورة هو ضريح سيدي علال الزغاري.

سنبدأ بقصة سيدي علال الزغاري التي أوردها المخبر الفرنسي موليراس في كتابه "المغرب المجهول:" تنسب إلى مولاي بوشتى كرامة شبيهة بكرامة الجد الأول للولي الصالح بوجداين بالريف. فقد دفن بقرية الصافيين التي تعتبر هي مقره المعروف، وكان أهالي بني مزجلدة وهي قبيلة جبلية مجاورة لفشتالة، يقدسون هذا الولي ويعتبرون أنفسهم خداما له، وقد قاموا في إحدى الليالي بسرقة جثمانه من القبر، معتبرين بأنهم أولى به من غيرهم. وبسرعة دفنوه بقرية ازويرة . ازغيرة . غير أن سكان الصافيين علموا بهذا " الاختلاس الورع " وفتحوا القبر، وكم كانت فرحتهم كبيرة عندما وجدوا الولي بمكانه. وعندما تلقت أهالي بني مزجلدة الخبر، أرادوا التأكد من أن وليهم المحبوب مازال راقدا في المكان الذي دفنوه فيه، فاستخدمت المعاول لإزالة التسعين سنتمترا من التراب الموضوع فوق القبر؛ ووجد الولي السعيد كما تم وضعه، في هيئة النائم. لقد بقي كما هو بوجهه الشاحب ولحيته الطويلة البيضاء المتناثرة فوق صدره. وفي مساء ذلك اليوم، ظهر الولي في حلم العديد من الأشخاص الورعين بالقبيلتين وخاطبهم قائلا، إن جثمانه كان موجودا بالقبرين معا، بالصافيين و بأزويرة (ازغيرة) وبذلك أقيم له ضريح في القريتين، مع الاعتقاد الراسخ لدى الجميع بأنه ولي عظيم، ما دام قد حقق هذه الكرامة بعد موته"[51].

أما قصة مولاي عبد الكريم بن عيسى الواقع ضريحه بقرية ماونة شمال الجماعة الترابية سيدي رضوان فمشهورة في المنطقة، ومفادها: أن هذا الولي الصالح اتخذ قيد حياته موقع قرية ماونة للخلوة والعبادة خلال حياته، قادما إليه من قبيلته أولاد عيسى الواقعة غرب جهة فاس. توفي مولاي عبد الكريم بخلوته ودفنه السكان المحليون هناك. لكن أفرادا من عائلته بأولاد عيسى جاؤوا إليه سرا ونقلوا الجثمان ليلا إلى بلادهم ودفنوه هناك. عندما علم سكان ماونة بهذا الاختلاس، بدأوا في التخطيط لإعادة الجثمان إلى قبره الأول. ولكن أحد أفراد الدوار رأى رؤيا في المنام جاءه فيها مولاي عبد الكريم وخاطبه قائلا: "عليكم أن لا تفكروا في جلب جثماني، فالبركة التي تلتمسونها بقيت في المكان الذي مت به ودفنت فيه أول مرة". وأعطاه مثالا بقدر من الطعام به مرق، فإذا هرق فإن المرق يتسرب في الأرض، وكذلك بركته فهي مهروقة الآن بمكان مولاي عبد الكريم الحالي بقرية ماونة، يلتمسها الناس حيث شاءوا.

بناء على المعلومات المقدمة، ألا يمكن اعتبار قصة سيدي رضوان الجنوي مشابهة لبعض كرامات الأولياء السابقين؟ وأنه يتوفر على موهبة الحضور في أماكن متعددة في نفس الوقت. إذ أنه يتمتع بتأثيره الروحاني في عدة مواقع، بما في ذلك بني مسارة وفاس والقصر الكبير... أم أن الأمر لا يعدو أن تكون خلوة فقط للولي قيد حياته، اتخذها الناس رمزا وفضاء للتبرك، تطور إلى بناء ضريح تخليدا لذكراه، وتيمنا ببركته وتعلقا به. وهذا الأمر ليس خاصا بمنطقتنا في بني مسارة السفلي فللولي سيدي رضوان الجنوي أضرحة ونظائر أخرى في عدة مواقع مختلفة...[52]

من الجدير بالذكر أنه في كتب التراجم، لم يتم ذكر منطقة سيدي رضوان الحالية بين مسارة كمكان لمزار الولي أو للخلوة به. ولم يذكر من بين رحلات الولي سوى زيارته لمدينة مراكش، عندما تبع شيخه الغزواني هناك، وزيارته لتازغدرة ببلاد بني زروال للتعلم على الشيخ الشطيبي. وتبين أن رحلاته كانت لغايات العلم والتعلم، وليست للخلوة والتعبد. يمكن تفسير مسألة وجود ضريح ومكان خلوة للولي في بني مسارة بناء على الاعتقادات الشعبية والتقاليد المحلية، حيث كان الناس يبنون بنايات ومزارات تكريمًا للأولياء ومقاماتهم، استنادًا إلى تعلقهم وتقديسهم لهم. ويُذكر بالذات ما حدث في دوار وكرار، حيث قام بعض الأرهاط أيام الاستعمار ببناء ضريح لسيدي أحمد الهياث، تخليدًا لذكراه، لأنه كان شيخ الهياثة، وقد كانوا يميلون إلى هذا الفن ويتبعونه، لكن السيد محمد بن قاسم الوكراري، العالم والمصلح الذي أثار الجدل في تلك الفترة، قاوم هذا الفعل ودمر ما بنوه[53].

كما يوجد في المنطقة أيضا نموذج آخر لضريح لولي بعيد جدا جاء من العراق، وهو مولاي عبد القادر الجيلاني الذي تنتشر أضرحته في كل مكان في المنطقة، بما في ذلك قرية الزواقين. والسبب في وجوده يعود إلى أحد أفراد عائلة الشيخيين الجنونية الذي حج إلى بيت الله الحرام، وزار بيت المقدس والعراق، خلال زيارته لبغداد مر على ضريح مولاي عبد القادر الجيلاني وحمل منه التراب، عندما عاد إلى الزواقين، وضع هذا التراب في موضع صار زاوية ومقبرة لأمواتهم القرية، وأصبحت تسمى بمقبرة مولاي عبد القادر"[54].

2.2. حقيقة دفن الولي سيدي رضوان ببني مسارة السفلى وسلطة ضريحه (سلطة ولي لضريح فارغ

جاء في كتاب الطريق إلى القصر الكبير في معرض حديثه عن الولي سيدي رضوان الجنوي باعتباره أحد أولياء المدينة الكبار، أنه توفي رحمه الله 14 ربيع الأول 991هـ، ودفن بفاس، وحضر جنازته أمراء الدولة وعدد كبير من الناس. وعندما وصل الخبر إلى مدينة القصر الكبير نظرا لما له من شهرة في هذه المدينة ولأخذه عن مشايخها كالشيخ الغزواني وسيدي سقين القصري، خرج الناس جميعا خارج المدينة للترحم عليه. وكان يوما مشهودا، فأقيم له ضريح، وأصبح المكان روضة لدفن المجاهدين تخليدا لذكراه. وكان مثل هذا الأمر يحدث كثيرا بين فاس والقصر الكبير في حالات موت المشايخ"[55].

شهادة مهمة تؤكد محبة الناس وشهرة الولي سيدي رضوان في القصر الكبير، والتي دفعتهم إلى بناء ضريح له بعد وصول خبر وفاته ودفنه بفاس، تعكس الاحترام والتقدير العميق الذي كان يحظى به الولي في هذه المدينة. وبالفعل، كانت ممارسة بناء الأضرحة لتخليد ذكرى الأولياء المحبوبين شائعة في المنطقة، كما يظهر من العبارة "وكان ذلك يحدث كثيرا ما بين فاس والقصر الكبير في موت المشايخ." فيما يتعلق ببني مسارة السفلى، يمكن أن يحدث نفس الأمر نظرا لشهرة الولي وتقدير الناس له في هذه المنطقة أيضًا. إذا كانت الأضرحة تعبر عن تقدير الناس ومحبتهم للولي، فقد يكون بناء أضرحة له في بني مسارة السفلى واحدة من التجليات لهذه المحبة والاحترام[56].

من أهم خدام ضريح الولي سيدي رضوان الحالي في بني مسارة هي عائلة الشرفاء السريفيين الشليين، والتي تعود أصولها إلى الولي سيدي علي الشلي الشدادي دفين سيدي بوجديان بقبيلة أهل اسريف في ناحية القصر الكبير، يثير هذا الأمر بعض الملاحظات، حيث يمكن اعتبار خدمتهم لضريحه إلى اليوم نابعة من حب أجدادهم له، خاصة وأنهم كانوا مستقرين في القصر الكبير، ورغبتهم في خلد ذكراه بمكان إقامتهم الجديد في بني مسارة السفلى. والأهم من ذلك، أن هذا الولي كان أحد شيوخ جدهم الذي اتبع طريقته في التربية والسلوك.

أما فيما يخص حقيقة دفنه في سيدي رضوان كما ترويها الروايات المحلية، والتي يؤكدها شهادة مقدم الضريح ومعلم بنائه، فلا تعدو حسب اعتقادنا أن تكون من نسج خيال الناس صدقوها مع مرور الزمن، والسؤال لماذا تم تغيير مكان الضريح الأول الذي لا يبعد عن الضريح الحالي إلا ببضعة أمتار فقط؟ مع ما يرافق ذلك من أمور مخلة بحرمة الموتى والمقابر، كنبش قبر الولي الذي وجدت جثته على حالها. ألا يمكن اعتبار مسألة بناء ضريح جديد بعيدا عن الضريح الأول هدفها إثبات أن جثمان سيدي رضوان حقيقي؟ بل إن جثته لم تتغير، وهذا تأكيد لحقيقة أخرى أن سيدي رضوان الحالي ولي حقيقي وقبره حقيقي، وولي عظيم بدليل بقاء جثمانه الطاهر كما هو دون تغيير.

بل ازداد الأمر بأن نسجت حوله قصص وخرافات أعطته بعض السلط حتى بعد وفاته. ومنها أن العروس إذا مرت أمام ضريحه في طريقها إلى بيت زوجها فإنها تموت في تلك الليلة، وهو اعتقاد لا زال متجذرا وسائدا لدى البعض حتى الآن. يعتقد أن هذا الاعتقاد يعود إلى اعتبار الولي سيدي رضوان مات شابا أعزبا لم يتزوج تأتيه الغيرة من العرسان فينتقم من العروسة، وهذا الأمر

زاد الموضوع تعقيدا، فسيدي رضوان المعروف مات شيخا كبيرا ولم يمت شابا، كما أنه كان متزوجا وأنجب ذرية، جاء عند بعض أصحاب التراجم: " ولم يخلف . رضي الله عنه . ولدا ذكرا إلا ابنة لها عقب بفاس يعرفون بأولاد ابن مبارك"[57]. إذن فكيف تأتيه الغيرة من العروس؟ وهو شيخ كبير تزوج وأنجب ذرية وعاش عمرا مديدا بلغ 79 سنة، جاء إلى القبيلة فارا من مفاتن الدنيا وزينتها، وهل هناك من شيء أهم من زينة ومفاتن النساء في الدنيا؟.

كما أن سلطته أيضا تشمل تسهيل القبض على اللصوص الذين يسرقون منه أو من حوله، فبركته لا يفارق اللصوص جوار الضريح مهما بذلوا من جهد للفرار والتخفي، فيتم القبض عليهم بسهولة، الأمر الذي جعل الناس في السابق يضعون مدخراتهم من ذهب وفضة وأموال أخرى يخشون ضياعها به، يأخذونها متى شاءوا، ولم يكن الأمر مقتصرا على الأفراد فقط بل يشمل حتى الجماعة والقبيلة، فمثلا لما فر المبعوث الألماني كوهنيل من بني مسارة يوم 24 . 25 نونبر 1918، جمعت بني مسارة ما خلفه من أموال وأسلحة ووضعوها بضريح سيدي رضوان، وتسلموها لاحقا من مقدم الضريح.[58]

ومهما يكن من أمر، فالحقيقة التاريخية تدفعنا إلى تصنيف هذه الحكايات في خانة الروايات الخيالية المنسوجة من خيال العامة. فلزيادة قداسة الضريح وإبراز كراماته، يزداد اعتقاد الناس بقدسيته، مما يجعلهم يتعلقون به ويقدمون الهدايا له، تستغل في مراكمة الأموال واستثمارها باسم سيدي رضوان، مما أدى إلى بناء بناية ضريح جميلة وبمواد غير تقليدية في زمانها، إلى جانب عقارات ومغارس...

إذا كانت هذه القصص صحيحة كما يدعي الناس، فأين ذهبت اليوم سلطات سيدي رضوان السالفة الذكر؟ لقد أضحت سلطات سيدي رضوان اليوم واهية لا يقوى أبدا على ممارستها، فالعرائس تمر يوميا بجواره ولا يقع لهن أي مكروه. اللصوص ما زالوا يتواجدون بجواره، وفي بعض الأحيان خاصة خلال الانفلاتات الأمنية كانوا يستقرون به ينطلقون منه لسرقة الناس،[59] وقد تعرض قلب الضريح نفسه للسرقة أكثر من[60]، ولولا سلطة الدولة وقبضتها الحديدية لم يمسك هؤلاء اللصوص.

خاتمة

حاولنا في هذه الدراسة أن نركز على بعض المظاهر الغريبة المرتبطة بمعتقدات الناس في شمال المغرب من أهمها ظاهرة الخلوات والأضرحة الفارغة لأولياء صالحين في أماكن مختلفة في بعض مدن وقرى المغرب، وهو ما يؤكد على أهمية هؤلاء الأولياء في معتقدات الناس رغم بعد نعشهم الحقيقي عن هذه الأضرحة وأن خلواتهم السابقة تفي بالغرض، حيث يقصدها الزوار من جميع أنحاء المغرب وتبنى عليها القبب ويقام حولها المواسم الدينية... ومن بين هذه الأضرحة، أضرحة الولي سيدي رضوان الجنوي العديدة والموزعة في عدة مناطق بالمغرب خاصة في منطقة الشمال، ومن بينها ضريحه الموجود في جماعة سيدي رضوان ببني مسارة السفلى الذي هو في الواقع خلوة اتخذها الولي أيام حياته للتعبد اتخذها الناس بعد وفاته مكانا لتخليد ذكراه باعتباره ولي مبجل، يعتقدون فيه الخير، ويلتمسون فيها بركته، وتيمنا بذكراه لما له من بركة ظاهرة، كاستجابة الدعاء عند قبره أو ما شابه. أما وجود نعشه بهذا المكان كما يدعي خدام الضريح فغير صحيح، لأن حقيقة وفاته كانت بفاس ونعشه مدفون بها، وبني عليه بناء في حينه، قام بتجديده السلطان الحسن الأول بعد مرور أكثر من 300 سنة على وفاته[61].

الهوامش:

[1] . أبو العباس أحمد بن محمد ابن القاضي المكناسي، **درة الحجال في أسماء الرجال**، تحقيق الأحمدي أبو النور، دار التراث، القاهرة، الجزء الأول، ص: 274.

[2] . محمد بن الحاج بن محمد بن عبد الله الصغير الإفراني، **صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر**، تقديم وتحقيق عبد المجيد خيالي، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، المغرب، صص: 46 . 48.

[3] . محمد بن الطيب القادري، **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني**، تحقيق محمد حجي، أحمد التوفيق، الرباط 1397 / 1977، الجزء الأول: ص:89.

[4] . عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، **فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات**، اعتناء الدكتور إحسان عباس، الجزء الأول، دار الغرب الإسلامي، بيروت، رقم 219، صص: 434 . 436.

[5] . أبي عبد الله محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني، **سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس ممن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس**، الجزء الثاني، تحقيق عبد الله الكامل الكتاني، حمزة بن محمد الطيب الكتاني، محمد حمزة بن علي الكتاني، دار الثقافة، صص: 290 . 295.

[6] . محمد بن محمد بن عمر بن قاسم مخلوف، **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية**، خرج حواشيه وعلق عليه عبد المجيد خيالي، الجزء الأول، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الجزء الأول رقم 1092، ص: 286.

[7] . أبي عبد الله بن عبد القادر التليدي، **المطرب في مشاهير أولياء المغرب**، دار الأمان، الرباط.

[8] . عبد الله المرابط الترغي، **فهارس علماء المغرب منذ النشأة إلى نهاية القرن الثاني عشر للهجرة منهجيتها . تطورها . قيمتها العلمية**، جامعة عبد المالك السعدي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان . سلسلة الأطروحات . 2، رقم 72 ص: 632.

[9] . الإفراني، م، س، ص: 46/ . محمد الكتاني، م، س، ص: 290.

[10] . نفسه، م، س، ص: 290.

[11] . الإفراني، **صفوة من انتشر**، م، س، ص: 46 / . محمد الكتاني، **سلوة الأنفاس**، م، س، ص: 290. / . القادري، **نشر المثاني**، م، س، ص: 89./ . مخلوف، **شجرة النور الزكية**، م، س، ص: 415 ./ . الترغي، **فهارس علماء المغرب**، م، س، ص: 632 ./ . التليدي، **المطرب**، م، س، ص: 164./ . العباس بن إبراهيم السملالي، **الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام**، راجعه عبد الوهاب بنمنصور، المطبعة الملكية / الرباط، الطبعة الثالثة 1993، ص: 228.

[12] . الإفراني، م، س، ص: 48.

[13] . محمد الكتاني، **سلوة الأنفاس**، م، س، ص: 290./ . الإفراني، **م**، س، ص: 48./ القادري، م، س، ص: 89./ . الكتاني عبد الحي، **فهرس الفهارس**، م، س، ص: 424./ . مخلوف، م، س، ص: 415./ . التليدي، م، س، ص: 164.

[14] . الإفراني، **م**، س، ص: 48./ . التليدي، م، س، ص: 164.

[15] . الإفراني، **م**، س، ص: 48. / . محمد الكتاني، **سلوة الأنفاس**، م، س، ص: 291. / . الترغي، م، س، ص: 632./ . التليدي، م، س، ص: 164.

[16] . محمد الكتاني، **سلوة الأنفاس**، م، س، ص: 291.

[17] . عبد الحي الكتاني، **فهرس الفهارس**، م، س، ص: 424.

[18] . التليدي، م، س، ص: 164.

[19] . نفسه، م، س، ص: 164.

[20] . محمد الكتاني، **سلوة الأنفاس**، م، س، ص: 291./ . الإفراني، **م**، س، ص: 47.

[21] . الترغي، م، س، ص: 632.

[22] . ابن القاضي، **درة الحجال**، م، س، ص: 274.

[23] . نفسه، م، س، ص: 274.

[24] . الإفراني، **م**، س، ص: 47.

[25] . نفسه، **م**، س، ص: 47.

[26] . أبو العباس أحمد بن موسى المرابي، **تحفة الإخوان ومواهب الامتنان في مناقب سيدي رضوان**" مخطوط المكتبة الوطنية تحت رقم 154ك، صص: 423- 424.

[27] . نفسه، صص: 427. 429.

[28] . الإفراني، **م**، س، ص: 48./ . محمد الكتاني، **سلوة الأنفاس**، م، س، ص: 295./ . عبد الحي الكتاني، **فهرس الفهارس**، م، س، ص: 424./ . مخلوف، م، س، ص: 415./ . الترغي، م، س، ص: 632./ . التليدي، م، س، ص: 165./ السملالي، م، س، ص: 232.

[29] . الإفراني، **م**، س، ص: 48./ . محمد الكتاني، **سلوة الأنفاس**، م، س، ص: 295./ . القادري، م، س، ص: 89.

[30] . محمد الكتاني، **سلوة الأنفاس**، م، س، ص: 294. / . مخلوف، م، س، ص: 415.

[31] . محمد الكتاني، **سلوة الأنفاس**، م، س، ص: 294.

[32] . نفسه، ص: 295.

[33] . عبد السلام اسريفي: من مواليد 1947 بدوار الزواويين جماعة سيدي رضوان، رجل تعليم متقاعد، جمعوي نشيط، له كناش خاص دون فيه بعض أخبار عائلته السريفيين، وبعض الأخبار عن تاريخ بني مسارة من بينها قصة سيدي رضوان الجنوي.

[34] . اسريفي، كناش خاص، ص:1.

[35] . الإفراني، **م**، س، ص: 46.

[36] . التهامي هاشمي: من مواليد دوار اكريكار سنة 1928، ترأس جماعة سيدي رضوان ثلاثة ولايات متتابعة من 1969 إلى 1983، توفي رحمه الله يوم 21 فبراير سنة 2012. له مخطوط خصه للحديث عن تاريخ عائلته السريفية وبعض المواضيع حول تاريخ بني مسارة من بينها الحديث عن الولي الصالح سيدي رضوان الجنوي.

[37] . التهامي هاشمي، **مخطوط عائلي في البحث والتحصيل في معرفة النسب والتحليل**، مخطوط خاص، ص: 27.

[38] . نفسه، ص: 6.

[39] . هاشمي، م، س، ص: 12.

[40]. من بين الكرامات التي كان يصدقها الناس بشكل قاطع حول هذا الولي، أن السارق الذي يتجرأ على سرقة أي شيء في الأماكن القريبة من الضريح سرعان ما يتم القبض عليه متلبسا بمسروقه، والسبب أن كرامة الولي سيدي رضوان تمنعه من الابتعاد عن الضريح وتجعله قريبا منه. فحتى لو سرق اللص

شيئا ليلا أو نهارا وأراد الهروب والفرار ستكون دهشته كبيرة عندما يكتشف بعد مشيه لمسافات طويلة أنه لم يبرح محيط الضريح، وبذلك يتم القبض عليه بسهولة.

41 . عبد السلام البكاري، **الوجيز في تاريخ وأعلام مسارة وعلاقة وزان وما ولاها من قبائل جبالة، دراسة وثائقية تحليلية**، الطبعة الأولى نونبر1997، البوكيلي للطباعة والنشر والتوزيع، صص: 53 . 54.

42 . وثيقة خاصة.

43 . عثمان المنصوري، **إطلالات على تاريخ المغرب الحديث**، مطابع الرباط نت، طبعة 2018، ص: 76.

44 . نفسه، ص: 76.

45 . محمد ابن عسكر الشفشاوني الحسني، **دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر**، تحقيق محمد حجي، طبعة ثانية، الرباط 1977، ص: 86.

46 . محمد الكتاني، **سلوة الأنفاس**، م، س، ص: 295. / . البكاري، **الوجيز**، م، س، ص: 54.

47 . يقول الكتاني في سلوته: " وأجمع العلماء والصلحاء على تعظيمه وتوقيره وحسن الثناء عليه، وبالجملة فمناقبه جمة لا تحصى، وأوصافه كثيرة لا تستقصى، وشهرته في العلم والصلاح تغني عن التعريف" . محمد الكتاني، **سلوة الأنفاس**، م، س، ص: 291.

48 . نفسه، ص: 292.

49 . معني محمد السنوسي، **على الطريق مولاي يعقوب الذي في الذاكرة**، الطبعة الأولى 2011، ص: 53.

50 . أوجست موليراس، **المغرب المجهول**، الجزء الثاني "اكتشاف جبالة" ترجمة وتقديم د. عزالدين الخطابي، ص: 14.

51 . موليراس، م، س، ص: 14.

52 . البكاري، م، س، ص: 54.

53 . ابراهيم بل العافية، **الشرفاء الكنونيون أهل الزواقين بقبيلة بني مستارة . مساهمة في التاريخ الاجتماعي** المغربي . الطبعة الأولى 2017، ص: 194.

54 . نفسه، ص: 89.

55 . بوخلفة محمد، **الطريق لمعرفة القصر الكبير**، ص: 56.

56 . نفسه، م، س، ص: 56.

57 . الكتاني محمد، **سلوة الأنفاس**، م، س، ص: 295.

58 . وثيقة خاصة.

59 . هذا الأمر معروف وعايشناه بدوار اكريكار المجاور له قبل إحداث مركز للدرك الملكي بسيدي رضوان، فقد كان اللصوص يتمركزون به ومنه ينطلقون لسلب أمتعة الناس.

60 . يعاني هذه الأيام المقاول المكلف بترميم الضريح من سرقات متعددة لأدوات ومواد البناء التي يستعملها في الترميم.

61 . الكتاني محمد، **سلوة الأنفاس**، م، س، ص: 295.